منهج الإمام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)

د. خالد سليمان الخلفات

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة المنهج الذي اتبعه الإمام القرطبي في تفسيره للقران الكريم في هذا الكتاب، والوقوف على أهم النقاط الرئيسة التي عالجها التفسير من حيث، شرح مفردات القرآن الكريم، وشرح مضامين الآيات والأساليب البلاغية التي وقف عندها، وبيانه للقراءات القرآنية، ثم الطريقة التي سار عليها في تفسير كل آية، ومن ثم معالجته للأحكام الفقهية التي عالجها القرآن الكريم.

Abstract:

This study aims at studying the method followed by Imam Al-Qurtubi in his interpretation of the Quran in this book so that to identify the most important points addressed by the interpretation in terms of explaining the vocabulary of the Quran and the contents of its verses and the rhetorical methods which he addressed in making the Quranic readings clear. As well, this study aims at identifying the method he followed in interpretation of each verse and how he dealt with the jurisprudential provisions which the Holy Quran approached.

الإمام القرطبي سيرته وحياته

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجيّ الأندلسي القرطبي.

لم تذكر المصادر التي ترجَمت له سنة ولادته، لكن ذكر محقق كتاب القرطبي (التذكار في أفضل الأذكار) بشر محمد عيون، أنه ولد في أواخر القرن السادس الهجري[1]

نشأ الإمام القرطبي في مدينة قرطبة بالأندلس، وهي مسقط رأسه، في عصر الموحِّدين، عاش في كنف والده الذي كان يعمل في الزراعة، وأشار القرطبي إلى أن والده راح ضحية هجمة نصرانية على ضواحي قرطبة سنة ٦٢٧ه، ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

[1])انظر عن سيرته وترجمة حياته: القرطبي أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي (ت٦٧١ه): التذكار في أفضل الأذكار، عناية: محمد بشر عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، ط٣، ١٤٠٧/١٩٨٧م، ص٧، والمقري، أحمد محمد التلمساني(ت١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، حققه ووضع فهارسه: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت– لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٦م، ج٢ص٤١٢-٤١٣، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الدمشقي، اشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط وحققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١،١٤٠٦ه/١٩٨٦م، ج٧ ص٥٨٤-٥٨٥، قاسم مخلوف: محمد بن محمد بن عمر(ت١٣٦٠ه): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليه: عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط٢،٢٠٠٢م، ج١ ص٢٨٢، ترجمة رقم٦٩٨، الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج٥ ص٣٢٢

كان الإمام القرطبي يعمل في صناعة الخزف في قرطبة[٢]. وبقي فيها حتى سقوطها بيد الإسبان سنة ٦٣٣هـ، وهناك إشارة إلى أنه كان مطاردا من الإسبان، ربما بعد سقوط قرطبة، إذ يورد هذه الإشارة عند تفسيره للآية الكريمة (وجعلنا من بين أيديهم سدا)[٣]، فيقول: " ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور[٤] من أعمال قرطبة، مثل هذا وذلك أني هربت أمام العدو، وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض قاعد، ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس، وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليّ، ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: (هذا دِيبْلُه)، يعنون شيطانا، وأعمى الله عز وجل أبصارهم، فلم يروني، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك"[٥]

خرج القرطبي من قرطبة، فرحل إلى مصر، وأقام في مدن مصر، واستقرَّ في منية بني خصيب في الصعيد.[٦]

كان الإمام القرطبي عالما ومفسرا موسوعي المعرفة، إلى جانب سيرته العطرة والأخلاق الرفيعة، يقول عنه ابن فرحون: (كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجُّه، وعبادة، وتصنيف...)[٧]

تلقى القرطبي علومه المختلفة في حلقات العلم في قرطبة، على أيدي علماء الأندلس قبل نزوحه إلى مصر، وهناك في مدن مصر التقى بعلمائها، وأخذ العلوم عنهم.

---

[٢]) الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، المشهور حسن محمود سلمان، دار القلم، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٩٣م ص٧

[٣]) سورة يس: الآية٩

[٤]) يقول د. القصبي: "وحاولت كثيرا أن أقف على حصن يسمى(منثور)، ومتى وقع في يد الأعداء وفي أي سنة أغار العدو عليه، فلم أعثر على شيء من ذلك، وأخيرا وجدت دائرة المعارف البريطانية تتحدث عن حصن يقع شمالي شرق مدينة قرطبة يسمى(Montoro)(مونتورو)، ولكنها لم تقدم لنا شيئا تاريخيا عنه" انظر كتابه: القرطبي ومنهجه في التفسير، ص١٩

[٥])الجامع لأحكام القرآن، ج١٠ ص٢٧٠

[٦])انظر: القرطبي ومنهجه في التفسير، القصبي محمود زلط، القاهرة، دار الأنصار،١٣٩٩ه /١٩٧٩م، ص٧.

[٧])ابن فرحون، أبو إسحاق إبراهيم بن علي المالكي(ت٧٩٩ه): الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، ١٩٧٢م، ص٦٧١)

له عدة مؤلفات ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود هي[٨]: الجامع لأحكام القرآن(مطبوع)، والتذكار في أفضل الأذكار(مطبوع)، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة(مطبوع)، والكتاب الأسنى، في أسماء الله الحسنى(مفقود)، وشرح التقصي(مفقود)، وقمع الحرص بالزهد والقناعة، وأرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، والتقريب لكتاب التمهيد لابن عبد البر، ورسالة في ألقاب الحديث، والمصباح في الجمع بين الأفعال والصحاح، والأقضية، والإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام، والمقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس، واللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية، ومنهج العباد ومحجة السالكين الزهاد.

توفي القرطبي بمنية ابن خصيب أو بني خصيب[٩] في صعيد مصر، وذلك ليلة الإثنين التاسع من شهر شوال من سنة إحدى وسبعين وستمائة(٦٧١هـ)، ودفن بها[١٠]، وقبره معروف بالمنيا في مكان يسمى(أرض السلطان)[١١]

مقدمـــة:

كانت العلوم الدينية من أول العلوم التي اهتم بها الأندلسيون منذ دخولهم الأندلس فاتحين، وذلك خدمة للقرآن الكريم تفسيرا وقراءات، فاهتموا بالتفسير مستعينين بما وصل إليهم من كتب التفسير في المشرق، ولم يقفوا عند تلقيهم لهذه الكتب، بل نجدهم قد شاركوا في تأليف الكتب في تفسير القران الكريم.

وكان أول هذه الكتب كتاب لبقيّ بن مخلد المتوفى سنة٢٧٦ه، وهو كتاب لم

---

[٨]) انظر: مقدمة التذكار قي أفضل الأذكار، للقرطبي، ص١٠، وانظر كذلك: القرطبي ومنهجه في التفسير ص(٤٤-٥٠)، وقد أشار الأخير إلى الكتب المطبوعة منها والمخطوطة والمفقودة وما ورد عن بعضها في كتب الفهارس.

[٩]) إحدى مدن الصعيد في مصر تقع على ضفة نهر النيل الشرقية، وهي مدينة مشهورة بكثرة مساجدها ومدارسها. (انظر: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي (ت٧٧٩ه): الرحلة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، دار صادر(د.ت) ص٤٨)

[١٠]) انظر: نفح الطيب،ج٢ ص٤١٤

[١١]) انظر القرطبي ومنهجه في التفسير، ص٣٠.

يصلنا، لكن ابن حزم أشار إليه وإلى قيمته ومنزلته بين كتب التفسير، كما يروي ذلك الضبّي حيث يقول:" وهو الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثناء فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره"[١٢]

ثم ألف القاضي ابن عطية وهو أحد علماء القرن السادس الهجري تفسيره المسمى: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" ثم تفسير آخر لابن النعمة، علي بن عبدالله الأنصاري المتوفى سنة ٥٦٧ه،المسمى: " ري الظمآن في تفسير القرآن"[١٣]

وكان أعظم كتاب في التفسير في هذه الفترة هو التفسير الذي بين أيدينا " الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي.

وقد تميز علم التفسير في فترة نضجه في العصر الذي ألّف فيه القرطبي تفسيره هذا بالحرص على التفسير بالمأثور، وعدم الاعتماد على التفسير بالرأي، إلا في حدود ضيقة، كما سنرى في هذا التفسير، والإقلال من الاعتماد على الإسرائيليات في نقل القصص والإخبار والاهتمام بالقراءات القرآنية، وتوظيف علوم اللغة في التفسير[١٤].

ولعل أهم ما نجده هنا في هذا التفسير هو استنباط القرطبي للأحكام من آيات القران الكريم، وهو أعظم ما يميز هذا التفسير.[١٥]

لا يعرف على وجه التحديد متى ألف القرطبي تفسيره؟ وأين ألّفه؟ هل ألّفه في الأندلس أم في مصر[١٦]؟ لكنه في أي مكان ألفه فيه فإنه " يدخل ضمن الإنتاج العلمي الأندلسي، بالنظر لنشأة صاحبه في الأندلس، وتلقيه العلم على يد علمائها[١٧]

---

[١٢]) الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة(ت٥٩٩ه): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق: د.روحية عبد الرحمن السويفي، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٧ه/١٩٩٧م، ص٢٠٩.

[١٣]).انظر: الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، د. يوسف على بن إبراهيم العريني، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤١٦ه/١٩٩٥م، ط١، ص٢٢٦)

[١٤]) انظر: الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص٢٢٦)

[١٥]) انظر: المرجع نفسه، ص٢٢٦)

[١٦]) يرجّح د. القصبي أنه ألفه بعد خروجه من قرطبة. انظر: القرطبي ومنهجه في التفسير، ص٤٤

[١٧]) الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص٢٢٨

ورغم طول هذا التفسير، إلا أنه جاء منظما لا استطراد فيه ولا تشتت، واتبع أسلوب العرض والتنظيم للمسائل، سواء أكانت شرحا وتفسيرا أو عرضا للأحكام الفقهية أو حديثا عن الأقوام السابقين وقصصهم، أو غير ذلك من القضايا، حتى حين يتحدث في مسائل اللغة والبلاغة والنحو والصرف نجده يوظفها لخدمة تفسير القران الكريم بصورة منطقية يرتاح القارئ وهو يقرأ تفسيره.

منهجه في التفسير

يعلن القرطبي عن هدفه الرئيس من تفسيره للقرآن الكريم من خلال اختياره لعنوان كتابه وهو (الجامع لأحكام القرآن)، ولذلك فهو كتاب يهتم أولا بالأحكام ويقف عليها في كل آية يرد فيها حكم فقهيّ، فيورد هذا الحكم ويتتبعه، ويتتبع الآراء حوله حتى يصل إلى ترجيح هذا الرأي أو ذاك، وفقا للمنهج الذي اتبعه في تفسيره لكل آية.

وفي مقدمة كتابه الجامع هذا يبين القرطبي رؤيته والمنهج الذي اتبعه في بناء كتابه فيقول: "وبعد، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشَّرْع، الذي استقل بالسنة والفَرْض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغلَ به مدى عمري، وأستفرِغَ فيه مُنَّتِي، بأن أكتب تعليقًا وجيزًا، يتضمَّن نكتًا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزَّيْغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهِدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيهما، ومبينًا ما أشكل منهما بأقاويل السلف"[١٨]

ثم يشير إلى الضوابط التي سيسير عليها في تفسيره فيقول:" وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله"[١٩]

وتجدر الإشارة هنا إلى صفات في الباحث الدقيق والمفسر، الذي يقف عند كتاب الله ليضع تفسيره للناس عامة، فهو يحرص على نسبة الأقوال إلى أصحابها؛ ليكون أمينا في النقل، معتمدا على ما لديه من أقوال الثقات من الرواة والمفسرين السابقين والعلماء في سائر العلوم في اللغة والبلاغة والتاريخ وغيرها. أما في الأحاديث فكان يحرص على الدقة في

[١٨]) الجامع لأحكام القرآن، المقدمة

[١٩]) الجامع لأحكام القرآن،ج١ ص٣

روايتها وإسنادها؛ ليطمئن القارئ إلى صحة الحديث، يقول في المقدمة:" وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم"[٢٠]

ولأن التفسير هذا ليس للخاصة بل هو لعامة الناس، كان عليه أن يلتزم من باب الأمانة العلمية بإسناد الأقوال إلى أصحابها، ونسبة الأحاديث إلى رواتها[٢١]. وهي إشارة مهمة من القرطبي الذي نظر في جمهور المتلقين قراء تفسيره، فهم ليسوا علماء ولا رواة حديث؛ حتى يقدم لهم المعلومة والمعرفة دون إسناد. أما الأخبار فيحدد منهجه في نقلها معتمدا على أهميتها وقيمتها في التفسير والشرح فيقول: "وأُضرِب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين إلا ما لا بدّ منه ولا غنى عنه للتبيين"[٢٢]

جاء هذا التفسير رغم حجمه الكبير محكم الترتيب، دقيقا في عرض مسائل التفسير وعرض الأحكام. ويتضح ذلك في النقاط الآتية:

أولا : منهجه في مقدمة تفسير السورة القرآنية

يبدأ القرطبي في بداية تفسيره لكل سورة ببيان إن كانت مكية أم مدنية، وإن كانت آيات منها مكية أو مدنية يشير إليها؛ ليطمئن القارئ لتفسيره عن هذه الآية أو تلك، وإن كانت فيها آراء واختلافات يذكرها، ويعرضها ويرجح الرأي الذي يراه صائبا ويميل إليه، ونجد ذلك على سبيل المثال في تفسيره لسورة الكهف، إذ يقول" وهي مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة إن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله تعالى "جرزا" والأول أصحّ" [٢٣] أي أنها سورة مكية كلها.

ثم ينتقل إلى الحديث عن فضائل هذه السورة، كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة وما ذكره الصحابة رضوان الله عليهم، ومناسبة نزول السورة إن كانت من السور القصيرة وإن كانت للآيات في السورة الواحدة مناسبات مختلفة وأزمنة مختلفة أيضا يذكرها في مقدمة تفسيره

٢٠) انظر ج١ ص٣

[٢١]) انظر مقدمة تفسيره: الجامع،ج١ ص٣

[٢٢]) الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٣

[٢٣]) الجامع لأحكام القرآن، ج١٠ ص٣٤٦

لكل آية وهكذا، ويشير إلى اختلاف أسباب النزول إن وجد.

والمهم في تفسيره أنه يجعل مجموعة من الآيات المترابطة في موضوعها وأحكامها جملة واحدة في ثنايا التفسير، وربما يفسر الآية مستقلة، ويبدأ تفسيره في كثير من الأحيان بعبارة " فيها مسائل، مسألة أو فيها مسألتان أو ثلاث مسائل أو أكثر، ويعتمد ذكر المسائل على الآية، وفقا لما تشتمل عليه من أحكام وقضايا أخرى، وهكذا، وكل مسالة تعالج موضوعا مستقلا عن موضوع المسألة السابقة، فربما تعالج المسالة الأولى قضية لغوية والثانية نحوية والثالثة فقهية والرابعة تنقل أحداثا تاريخية والخامسة يقف فيها مثلا على اختلاف القراءات القرآنية إن وجد، وهكذا.

وقد أشار القرطبي في مقدمة كتابه إلى منهجه في تفسير الآية أو الآيات بقوله: "واعْتضتُ من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين، فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب"[٢٤]

ونجد أن بعض الآيات القرآنية وصل عدد مسائلها إلى أكثر من أربعين مسالة، ومنها على سبيل المثال تفسيره للآية رقم (٨٩) من سورة المائدة وهي:

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أو كِسْوَتُهُمْ أو تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٥]

حيث يذكر فيها سبعا وأربعين مسألة، تتعلق بالتفسير اللغوي والأحكام الفقهية، والوقوف المطول عند حلف اليمين وكفارة اليمين، ولمن تعطى هذه الكفارة؟ وغيرها من القضايا التي تطرحها كل مسألة، مستندا إلى أقوال العلماء والفقهاء. وكأننا ونحن نقرأ تفسيره لهذه الآية نقرأ كتابا في الفقه على المذاهب الأربعة، حيث يأتي شرح هذه الآية من الكتاب في اثنتين وعشرين صفحة من الطبعة التي اعتمد

[٢٤] الجامع لأحكام القرآن، ج١ص٣

[٢٥] المائدة، الآية ٨٩

عليها الباحث. وهذا يدلل على صفة الشمولية والبحث لمعالجة المسائل والأحكام في هذه الآية. وكل الحديث يدور هنا عن اليمين وأنواعه والألفاظ التي تنعقد عليها، وكفارة اليمين وهل يجوز الحلف بغير الله؟ وهكذا.

ورغم كثرة هذه المسائل في توضيح هذه الآية، إلا إننا لا نرى تداخلا أو استطرادا أو تكرارا للقضايا والتفسيرات، فمسألة تقف عند قضية في اللغة، ومسألة تقف عند الحكم الفقهي وآراء الفقهاء فيه، ومسألة تعالج قضايا خلافية وهكذا.

ثانيا: يتوقف القرطبي في تفسيره للآيات الكريمة عند المعاني اللغوية لكل كلمة تحتاج إلى شرح وتفسير، خاصة حين تكون هذه المفردة من غريب الألفاظ، فنجده يعيدها إلى جذرها وأصولها ومعناها في سياق الآية، والمعاني التي تخرج إليها، وذلك بعد ضبط حروفها، وذكر الاختلاف عند اللغويين في ضبطها، وما يؤديه اختلاف الضبط من تغيير في المعنى، ويستشهد على معناها بآية أخرى أو بحديث نبوي شريف أو بشاهد شعري؛ ليكون المعنى واضحا يساعد على فهم الآية وتفسيرها، ونجده كذلك يعتمد على كتب ومعاجم لغوية ومعجميين مشارقة، مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي ومعجمه العين والزبيدي وغيرهم.

ثانيا: يقف القرطبي في كل آية تتضمن حكما فقهيا وقوفا طويلا، يستعرض هذه الأحكام وما ورد في القران الكريم من آيات أخرى ذات علاقة بهذا الحكم، وكل ذلك يجعله ضمن مسائل تتضح فيها هذه الأحكام، وفق منهج علمي دقيق يبدأ بأحاديث الرسول عليه السلام، التي هي شرح أو توضيح للحكم الوارد في الآية أو ذكر حديث يرتبط بأحداث تاريخية أو قصص أنبياء وردت عنه عليه السلام. ثم يأتي على أقوال الصحابة رضوان عليهم، وبعدها أقوال التابعين وآرائهم إلى أن يصل إلى أقوال الأئمة الأربعة مالك وأبي حنيفة وابن حنبل والشافعي وغيرهم من أصحاب الأحكام، ولكنه لا يقف عند عرض هذه الأقوال ليحدد موقفه منها، بل نجده يقارن بين هذه الآراء ويرى التقارب بينها والاختلاف ويحللها بالعقل والمنطق، مستندا إلى الأدلة النقلية، ويرجح هذا الرأي على الرأي الآخر مبررا وموضحا قناعاته فيه. فيجد القارئ في تفسيره سلامة الرأي. ومثال ذلك وقوفه عند

أحكام السفر في الآية رقم١٠١ من سورة النساء "وإذا ضربتم في الأرض....."[٢٦] ويذكر هنا عشر مسائل في بيانها وتفسيرها والأحكام الواردة فيها[٢٧].

وفي هذا الصدد نشير إلى أنّ القرطبي كان مالكيا والمذهب المالكيّ هو مذهب أهل الأندلس منذ قيام الدولة الإسلامية هناك. واستطاع تحقيق مذهب مالك في كل الأحكام الفقهية التي بناها الإمام، لكننا نجده موضوعيا أمينا دقيقا في عرض آراء الفقهاء الأربعة[٢٨]، مرة يرجح رأي مالك ومرة يرجح رأي الشافعي، ولا يتعصب لرأي المالكية. فالقرطبي كان " حرّ التفكير فمع أنه مالكي المذهب ربما رجح رأي الشافعي على مالك ويقيم الدليل مما يذهب إليه، وإذا رأى أن يرد رأي أبي حنيفة قبلا في مسألة ما فإنه يرده بالدليل الواضح في لطف كلمة وأدب عالم"[٢٩]

ومن الأمثلة على ذلك حديثه عن "إمامة الصغير عندما توقف عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٣٠]، التي اختلف فيها العلماء فيورد القرطبي آراء من أجازها ومن منعها، وممن رأى عدم إجازتها الإمام مالك والثوري، وأصحاب الرأي، فيخالفه وهو مالكي المذهب، ويخالف من معه في الرأي؛ بما لديه من أدلة حيث يقول : "قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئًا، ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يَزعم أن الله أرسله، أوحى إليه كذا! أوحى إليه كذا!، فكنتُ أحفظ ذلك الكلام، فكأنما يقرُّ في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامها، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند نبي الله حقًّا، قال: (صلُّوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذِّن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا)

---

[٢٦]) سورة النساء، الآية ١٠١

[٢٧]) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج٥ ص٣٥١-٣٦٣

[٢٨]) انظر: الذهبي، د. محمد حسين: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، ١٤٢١هـ، ج٢ ص٣٣٨.

[٢٩]) راجح، محمد كريم: مختصر تفسير القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ه/١٩٨٧م، ص١٠

[٣٠]) سورة البقرة، الآية٤٣

فنظَروا، فلم يكن أحد أكثر مني قرآنًا؛ لما كنت أتلقى من الركبان، فقدَّموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت عليَّ بُردة إذا سجدتُ تقلَّصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطُّون عنا استَ قارئكم؟! فاشتروا فقطعوا لي قميصًا، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص"[٣١]

وهكذا نجده يعرض هذه الآراء دون أن يميل إلى رأي على حساب رأي، وخاصة في القضايا الفقهية، التي فيها توسع وتستند إلى أحكام ورد في أكثر من حديث نبوي شريف وهو كذلك لا يقف عند حدود نقل الآراء والتسليم بها بل نجده يقدم رأيه كمفسر، يستنبط الأحكام من قراءته لهذه الآية أو تلك ونذكر على سبيل المثال وقوفه عند الآية رقم٣ من سورة المائدة:

"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[٣٢]

فبعد أن ينقل رأي ابن ميسرة الذي يشير إلى أن هذه السورة فيها ثمانية عشر حكما، يضيف هو حكما جديدا وهو الحكم التاسع عشر فنجده يسند القول إلى نفسه " قلت: وفريضة تاسعة عشرة وهي قوله جل وعز" وإذا ناديتم إلى الصلاة " ليس فيها للأذان ذكر في القران الكريم إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات..."[٣٣]

ثالثا: القراءات القرآنية:

يعد الجامع لأحكام القران مرجعا في القراءات القرآنية، حيث نجد القرطبي يقف عند الآيات القرآنية الكريمة والمفردات التي فيها أكثر من قراءة عند القراء المشهورين في القراءات القرآنية، السبع المشهورة والقراءات السبع غير المشهورة، وهذا يصور عمق معرفته بالقراءات، فنجده يقف عند القراءة هذه أو تلك، فيقول هذه قراءة فلان، وقرأ فلان هكذا، ومن أمثلة ذلك وقوفه عند الآية "

[٣١]) الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٣٥٣

[٣٢]) سورة المائدة، الآية ٣

[٣٣]) الجامع لأحكام القرآن،ج٦ ص٣٠-٣١

كبرت كلمةً تخرج من أفواههم... "[٣٤]، إذ نجده يورد هذه القراءة المشهورة لكلمة " كلمةً" منونة بتنوين الفتح، ويشير إلى قراءات أخرى لها منونة بتنوين الضم "كلمةٌ"[٣٥]

رابعا : المسائل اللغوية والنحوية

يمكن أن نعد هذا التفسير كتابا في النحو واللغة؛ لوقوفه عند الكثير من القضايا اللغوية حيث يقف عند إعراب هذه الكلمة أو تلك، وإن كان فيها اختلافات نحوية يشير إليها، مستندا على ذكر آراء النحاة، وعلى رأسهم سيبويه، ثم الزجاج وأبو الأسود الدؤلي وغيرهم، فيأتي بآرائهم وآراء غيرهم، ويستعرض آراء المدارس النحوية المختلفة موضحا رأيه اللغوي؛ ليصل إلى التفسير الصحيح للآية، استنادا إلى التفسير اللغوي، والشواهد كثيرة على ذلك، لا تخلو منها صفحة من صفحات الكتاب.

ومنها: وقوفه عند قوله تعالى " فسوف تعلمون" في الآية ٤٠ من سورة هود، فيذكر آراء النحاة والمدارس النحوية في حرف (سوف)[٣٦]

خامسا :شرح المفردات اللغوية

لا نبالغ إذا قلنا أن هذا التفسير يمكن أن يكون معجما لغويا، لا يقل شأنا عن معاجم اللغة الشهيرة، وذلك للمنهج الذي اتبعه القرطبي في تفسير كل مفردة غريبة، فهو لا يترك كلمة أو مفردة إلا بعد أن يشرح دلالتها واختلاف معناها من سياق إلى سياق. والقرآن الكريم هو كتاب العربية الشامل الجامع لكلام العرب، وهو ثري بالمفردات العربية على اختلاف لهجاته. وحتى يفسر القرطبي الآية ومضمونها واستنباط الحكم فيها فهو بحاجة إلى البحث في الكلمة ومدلولها في السياق، وهذا بحد ذاته جهد لغوي، يعكس الثقافة اللغوية للقرطبي، التي جعلته يسهب ويفصل في شرح هذه الآية أو تلك ويعدد مسائلها، والأمثلة كثيرة لا تخلو منها صفحة من كتابه الجامع. فمثلا نجده يقف عند كلمة (بضع) التي وردت في الآية ٤٢ في سورة يوسف :" وقال للذي

[٣٤]) سورة الكهف الآية ٥

[٣٥]) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج١٠ص٣٥٣

[٣٦]) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج٦ ص٣٣، وانظر حديثه عن الاستثناء المنقطع في الآية ٩٢ من سورة النساء، وما ينقله من شواهد شعرية حوله، في التفسير، ج٥ ص٣١٢

ظنَّ... فلبث في السّجنِ بِضْع سنين". يقول القرطبي:" البِضْعُ: قطعة من الدهر مختلف فيها، قال يعقوب عن أبي زيد، يقال: بَضْعٌ وبِضْعٌ بفتح الباء وكسرها. قال أكثرهم، ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين، وقال الهرويّ: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع، والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من العدد"[٣٧]

ثم يذكر رأي أبي عبيدة، ثم يستشهد بحديث الرسول عليه السلام، ثم يذكر آراء بعض العلماء، ويختم هذه الآراء برأي مقنع، وهو رأي الفراء، فيقول: " والبضع لا يذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين ولا يذكر بعد المئة"[٣٨]

ومن أمثلة وقوفه عند معاني المفردات وضرورة شرحها وتوضيحها، هو تفسيره لمعنى كلمة (بَحيرة)، وذلك لما لهذا التوضيح وبيان المعنى من أهمية سيبنى عليه حكم شرعي، حيث ترد هذه الكلمة في الآية (١٠٣) من سورة المائدة "ما جعلَ اللهُ منْ بَحِيرةٍ وَلا سَائِبَةٍ... الآية" فيذكر أن معناها هي التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس، ثم يشير إلى أن (البحيرة) في اللغة هي الناقة المشقوقة الأذن، يقال: بَحَرْتُ أذن الناقة أي شققتها شقا واسعا.. إلخ[٣٩].

وينطلق من هذا التوضيح اللغوي إلى الحديث عن وَسْم الإبل والأنعام أي وضع علامة لها؛ حتى تُعرف وتُميّز عن غيرها. وفعل ذلك رسول الله في إبل الفيء والغنائم[٤٠].

ثامنا: ذكره للقصص التاريخية وأحوال الأقوام السابقة، ومنها قصص الأنبياء السابقين، وعلاقتهم بأقوامهم، فيسرد هذه القصص بعد ذكرها في الآية أو مجموع الآيات، فيذكر ما فيها من أقوال وروايات، ومن هذه القصص قصة سليمان عليه السلام مع النملة، التي وردت في سورة النمل في قوله تعالى:

(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

[٣٧]) الجامع لأحكام القرآن، ج٩ص١٩٧

[٣٨]) الجامع لأحكام القرآن، ج٩ص١٩٧

[٣٩]) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج٦ ص٣٣٥-٣٣٦،

[٤٠]) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج٦ص٣٣٦

وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.} [41]

فنجد القرطبي يذكر العديد من روايات الرواة والمحدثين، فينقل مثلا ما قاله أبو إسحاق الثعلبي" ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لم حذرت النمل؟ أخفت ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت؟ يحطمنكم سليمان وجنوده، فقالت النملة: أما سمعت قولي وهم لا يشعرون، مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يفتتن بالدنيا، ويشغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر. فقال لها سليمان: عظيني. قالت النملة: أما علمت لم سمي أبوك داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحة فؤاده.هل علمت لم سميت سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك. ثم قالت: أتدري لم سخر الله لك الريح؟ قال: لا. قالت: أخبرك أن الدنيا كلها ريح ، فتبسم ضاحكا من قولها متعجبا، ثم مضت مسرعة إلى قومها..."[42]

من جانب آخر فيما يتعلق بنقل الأخبار والروايات التي أعلن القرطبي التزامه بعدم نقلها إلا ما لا بد منه، كما أشرنا في البحث، إلا إننا نجده يخالف شرطه هذا قليلا، فينقل لنا أخبارا وقصصا، وردت في كتب المفسرين، منها خبر إبليس الذي تغلغل إلى الحوت، وخبر الحية التي كانت خادمة لآدم، وسؤال اليهود للنبي عليه السلام عن الرعد وقصة كلب أصحاب أهل الكهف واسمه ولونه، وغيرها [43]وهي قضايا لا أهمية لها في التفسير.

سادسا: الاستشهاد بالشعر

كثيرا ما نجد القرطبي يعود إلى الشعر العربي في تفسيره للآيات القرآنية أو الاستناد عليه؛ لتوضيح معنى مفردة أو تركيب ليساعده على شرح الحكم الوارد فيها. وكان القرطبي" يذكر الشعر لأغراض مختلفة، فتارة يذكره لبيان معنى لغوي، وتارة يذكره للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية أو للاستدلال على توجيه رأي في الإعراب"[44] ومن أمثلة ذلك استناده إلى الشعر في تفسير كلمة (حين)

[41]) الآيتان ١٨و١٩

[42]) الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص١٧١

[43]) انظر: مقدمة الطبعة الثانية من مختصر تفسير القرطبي.

[44]) القرطبي ومنهجه في التفسير، ص٢٦٩

في قوله تعالى في سورة الإنسان، الآية (١):" هلْ أَتى على الإِنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ"، فالحين هو الساعة، ويستشهد بقول بثينة[٤٥]:

وَإِنَّ سُلُّوي عن جميلٍ لساعةٌ.... من
الدّهرِ ما حانت ولا حانَ حينُها

والأمثلة كثيرة على الاستشهاد بالشعر للأسباب التي ذكرناها، وقد تكون لترجيح قراءة قرآنية على غيرها، ونجد هذا في معظم الآيات القرآنية.

وأخيرا فإن هذا التفسير" لم يكن جامعا للأحكام الفقهية فقط، كما يوهم اسمه (الجامع لأحكام القران) بل هو جامع للغة والإعراب والقراءات والقصص والحديث، وغير ذلك مع إشراق العبارة ورقّة البيان من غير تعقيد ولا إغلاق"[٤٦]

الخلاصـــة:

يعد هذا التفسير تفسيرا شاملا جامعا محكما، وذلك لما يتميز به من شرح وتفصيل وتنظيم ودقة وترتيب للأبواب ووضوح في المنهج الذي اتبعه.

وأهم شيء في هذا التفسير، كما يتضح من اسمه أنه كتاب أحكام، جاء معنيا بها، متوجها إليها وعلى هذا الأساس بنى القرطبي تفسيره، معطيا المذهب المالكي جل اهتمامه، وغايته تحقيق هذا المذهب، والأحكام التي جاء بها الإمام مالك، لكننا رأينا عدم تعصبه لهذا المذهب، فهذا التفسير إن شئت هو كتاب فقه على المذاهب الأربعة، حيث يقف عند كل آية، تشتمل على حكم فيوضحه، ويسرد آراء الفقهاء فيه؛ ليصل إلى حكم، يعززه بالأدلة، مرجحا بعضها على بعض.

وهو كتاب في اللغة، بل هو معجم لغوي، لم يترك كلمة غريبة إلا وشرحها، ووقف على معانيها واشتقاقاتها وأصولها، وهو يوظف ذلك لخدمة المعنى الذي جاءت به هذه الآية أو تلك، بالإضافة إلى ذلك هو كتاب في النحو والصرف، وهو يوظف النحو لخدمة المعنى، وربما نجد ترجيح حكم فقهي بناءً على فهم التركيب اللغوي ووظيفة الكلمة وموقعها الإعرابي في الآية.

---

[٤٥]) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص٣٢٢

[٤٦]) مختصر تفسير القرطبي، اختصار ودراسة وتعليق: محمد كريم راجح، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ه/١٩٨٧م، ص١٠

وهذا التفسير كتاب في الأحاديث النبوية وأقوال الرسول عليه السلام، يخرجها ويحدد الصحيح منها والحسن، موظفا ذلك في تفسير آيات القران الكريم.

وإلى حد بعيد خلا التفسير من الإسرائيليات والأخبار التي لا قيمة لها، فابتعد عن ذكرها؛ حتى لا تكون في هذا التفسير، وقد حدد ذلك في منهجه لكنه أورد بعضها كما أشرنا، معتقدا بل مجتهدا أهميتها في تفسيره لهذه الآية أو تلك.

المصادروالمراجع

١. ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي (ت٧٧٩ه): الرحلة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الإسفار، بيروت، دار صادر(د.ت).

٢. ابن حجر العسقلاني، شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل بيروت.(د.ت)

٣. الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي(ت ق٨ه): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د.إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

٤. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(٧٤٨ه): تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٦م.

٥. الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبه، ١٤٢١ه.

٦. راجح، محمد كريم: مختصر تفسير القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧ه/ ١٩٨٧م.

٧. الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة ١٥، ٢٠٠٢م

٨. زلط، القصبي محمود: القرطبي ومنهجه في التفسير، القاهرة، دار الأنصار، ١٣٩٩ه/١٩٧٩م.

٩. سالم، السيد عبد العزيز: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت،١٩٧٢م

١٠. سلمان، المشهور حسن محمود: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، دار القلم بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣.

١١. الضـــبي، أحمـــد بـــن يحيـــى بـــن عميرة(ت٥٩٩ه): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأنـــدلس، تحقيـــق: د. روحية عبـــد الـــرحمن الســـويفي، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

١٢. العرينـــي، د. يوســـف علـــى بـــن إبراهيم: الحياة العلمية في الأنـــدلس في عصر الموحـــدين، مطبوعـــات مكتبة الملك عبد العزيز، الريـــاض، ط١، ١٤١٦ه/١٩٩٥م

١٣. ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أشرف على تحقيقه وخـــرج أحاديثـــه: عبـــدالقادر الأرناؤوط، وحققه وعلـــق عليـــه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثيـــر، دمشـــــق، بيـــــروت، ط١، ١٤٠٦ه/١٩٨٦م.

١٤. ابن فرحون، أبو إسحاق إبراهيم بن علي المـــالكي (ت٧٩٩ه): الـــديباج المذهب في معرفة علمـــاء أعيـــان المذهب، تحقيق: محمد الأحمد أبـــو النور، دار التراث، ١٩٧٢م

١٥. قاسم مخلوف،محمد بن محمـــد بـــن عمـــر(ت١٣٦٠ه): شـــجرة النـــور الزكية في طبقات المالكيـــة، خـــرّج حواشيه وعلق عليـــه: عبدالمجيـــد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م

١٦. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجـــي (ت٦٧١ه،): التذكار في أفضل الأذكـــار، محمـــد بشر عيـــون، مكتبـــة دار البيـــان، دمشق، ط٣، ١٤٠٧/١٩٨٧م.

١٧. القرطبـــي،..... الجـــامع لأحكـــام القـــرآن، دار الكتـــب المصـــرية، ١٩٥٢م.

١٨. الكتبي،صلاح الدين، محمد بن شاكر بن أحمد(ت٧٦٤ه): فوات الوفيات، تحقيـــق: د. إحســـان عبـــاس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م

١٩. المشيني، مصطفى إبراهيم: مدرسة التفسير في الأندلس، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٠٦ه/١٩٨٦م.

٢٠. المقـــــري، أحمـــــد محمـــــد التلمساني(ت١٠٤١هـــ): نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، حققه ووضع فهارسه: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.